

والحق أبلج في شريعته التي
لا تذكروا الكتب السوائف عنده
جهدت فروغاً للهدى واصولا
طلع الصباح فأطفأ القنديل
درست معالمها ألا فاستخبروا
عنها رسوماً قد عنت وطلولا

ولا يخفى ان هذه المطاعن التي تنافي ما ذكره المصنف وغيره من الدليل على حاجة البشر الى الشريعة ولا تليق بالوحي السماوي لا ترد على المسالمين الذين يقولون بحقيقة التوراة والانجيل لما بيناه في الجزء الخامس فراجعه

باب التربية والتعليم

﴿ التدرج الفطري في تعليم الرسم والخط والقراءة ^(١) ﴾

(٥٢) من الدكتور ارسم الى زوجته في ١٨ ابريل سنة ١٨٥٠

تلقيت رسم « اميل » فاعتببت به والله ما تفضلت باضافته اليه من الشرح الذي كان كالمفتاح لمغلقه فلولا اني لما نفذ ذهني في سر خطه البرباني . لا شك ان هذه البقعة الكبيرة السوداء تمثل العاصفة والبحر المضطرب والسماء المظلمة بالسحب وهذه يدي رهن لمن شاء على اني ارى فيه السفينة العريقة وان كانت قوائين علم المرثيات لم تراعى في الرسم بالتدقيق . وذلك الشيء الطافي على وجه الماء لا بد ان يكون زورق النجاة . واما هذا الوجه المصبوغ بالمداد فلا وجه للخطا في معرفته فهو وجه قوبيدون وكأني ارى بعين الارتياح في الصورة الصغيرة الملقاة على الارض تلك الفتاة المضحى

(١) عرب كتاب اميل القرن التاسع عشر في التربية والتعليم

عليها التي نجت من الغرق . أراك تجدينني قد فهمت ذلك الرسم الذي لا اعرف من آثار ولدي سواه وقد علقته هو وصورته على جدار حجرتي ان صناعة الاطفال تذكرنا دائماً بطفولية الصناعة وان تصوير بعض اشكال هذا العالم الخارجي هو ملكة غريزية في نوعنا وربما كانت هي التي تميزنا عن غيرنا من سائر الحيوانات اجلى تمييز فان انسان (الغاب) الوحشي الذي لا تعرف لفته ولا تاريخه قد علم عنه اليوم انه كان في زمن ما ينقش بالظران (الحجارة المحددة) على الحجر او على قرن الايل القطبي صوراً سمجة لا اثر للاتقان فيها كصورة القيل القديم ذي القروة المسمى بالموث كما رسم بعض الحيوانات الأوايد الغريبة التي كان يغالبها في التسلط على الآجام والغاب

لدينا كذلك برهان على ان مجتمعات الانسان الاولى مارست فنون التقليد من قبل ان تضع لنفسها قوانين ثابتة تكفل لها حاجيات معيشتها استنتج مما قدمته ان تعليم الاطفال ينبغي ان يبدأ فيه بالرسم وهذه هي الطريقة التي تتلمس فيها لنقل الطفل من التصوير الى الكتابة لقد أحسنت النظر اذا انتهت الى ان حروف كتابتنا لا صلة بينها وبين ما وضعت للدلالة عليه بشكلها وأنه ما ثم الا المواضع والاصطلاح فان الطفل ما رأى في الكون شيئاً هو (ا) او (ب) . ولكن اختراع هذه الحروف هو من اعظم الآثار وضروب فوز العقل الانساني المخلدة في صفحات تاريخه . واذكري ان الامم القديمة كانت قد استمدت من زمن طويل للحروف الهجائية بممارسة الرسم ثم انتقلت منه اليه فقد استمد الفينيقيون حروفهم من الخط الكهنوتي القديم . واما ابتاء هذا المهد فان

هذا الاتصال بين الرسم والخط مقطوع في نظر الطفل الذي يتعلم القراءة والكتابة بخطهم فإنه ينتقل فجأة الى عالم معنوي لا يجد فيه شيئاً يسترشد به ولا رابطة القياس والمماثلة . وبعد هذا يندهش مبطله من استنقاله ما يراه امامه من المقبات . ليس هو الذي يحق له المعارضة في مثل هذه الطريقة المضادة للعقل بل ان كل ذى ذوق سليم وحكم صحيح يحق له ذلك كل ما يتعلق بالخط يحملنا على اعتماد ان الحروف الهجائية التي اخترعت اولاً قلما كانت الا صوراً لبعض اشياء كانت تنسب اليها اكثر من غيرها والخط ابتدئ باختصار في الرسم وليت شعري هل محبت تلك الآثار البريائية تمامها من الحروف الهجائية للغات الحديثة ؟ اقول ان هذا الامر محل للشك وانى اعرف رجلاً كيتاً كان يرجع اشكال حروف لغتنا المطبوعة الى بعض الصور الخلقية نعم ان مضاهاته كانت احياناً تشف عن بعض التكلف ولكني اود عن طيب نفس اتباع طريقته للتوفيق في ذهن اميل بين طائفتين من الاشكال تظهر ان لأول نظرة متباعدتين كأن بينهما بجزاً رهواً . فاذا رسم مثلاً سطحاً مستديراً يمثل به الشمس اكتب في اسفل هذا الرسم اسم هذا الكوكب بالفرنساوية (Soleil) معنياً باظهار حرف O مكبراً . فاذا كان الرسم « منزلاً » maison او « ثعباناً » serpent او « طريقاً متعرجاً » zigzag او « عيناً باصرة » œil بذلت جهدي في بيان وجوه الشبه التي عساها توجد بين الحرف الاول من هذه الكلمات والاشياء التي تمثلها في الذهن فان « اميل » يفهم بهذه الطريقة ان الخط هو كيفية اخرى للرسم بها يبين الانسان مراده باوضح مما يحاوله بالرسم وفي زمن اقل

ان الذي يحير الطفل ويضله هو الزامه باتباع طريقتنا في النظر بدل
 أن نستدرجه من المألوم الى المجهول استدراجاً سهلاً فتريننا تبادر الى صب
 المائي العنقية في ذهنه صباً على حين انه لم يكتسب بعد ملكة تميزهيات
 الاشياء المادية . نضطره الى ذلك بفضل ما لنا عليه من الولاية المنورة
 على اختلاف درجاتها فينا ولكني أرى اننا بهذه الطريقة نجني على ذهنه
 جنابة تقضي بالأسف فان الزامه بالتعلم وقهره عليه يسلبان معظم مياله الى
 الملاحظة والتعلم بنفسه . ان ضرر الاستبداد في البيوت لم يكن اقل
 من ضرر استبداد الحكومة

أرى ان الرسم والكتابة والقراءة هي ثلاثة ضروب من التمرين
 مرتبط بعضها ببعض بحيث لا ينبغي التفريق بينها في التربية الاولى على
 ان الرسم هو الذي يجب البداية به فان في ذلك مزايا كثيرة اولها كفاية
 الطفل مؤنة ما للدرس من السامة والملل في اول امره فان معظم الاطفال
 يكرهون الكتب ومن منهم لا يعيل الى الصور ؛ كلا ان فيهم دافعا طبيعيا
 يحلهم في الغالب على ان يرسوا بأيديهم ما يقع تحت ابصارهم فالرسم
 عندهم ضرب من اللعب خصوصا اذا مارسوه بدعوة الفريزة واجتهدوا
 من انفسهم في أن يمثلوا أشد الاشياء استمالة لهم . ولا انكر ان ملكة التمثيل
 والمحاكاة لا يستوي فيها جميع الاطفال ولكن التأني كاف في تنميتها غالبا
 ليت شعري هل ولد الانسان رساما ؛ هذا ما لا اعلمه وانما الذي يشبهه
 لنا التاريخ ان فنون الرسم تقدمت في جميع الأمم تقدم الكتابة والمألوم
 واذا كان الامر كذلك فالتاريخ يبيد نفسه في الاطفال كل يوم بأعيننا . ومن
 مزايا الرسم ايضا انه يربي القوة المحاكاة في نفس الطفل فان في فتح ابواب

الكون له قبل فتح الكتب أمامه مبادرة لإرشاده له إلى ينبوع العلم ،
فحكاية الجماد أو الحيوان أو النبات توجه نظره دائماً إلى الصفات المقومة
للأمة ما يحاكيه وإن جاء الرسم ناقصاً . الرسم هو تمثيل أشكال الأشياء
وحدودها بخطوط فيجب أن يكون الراسم قد رآها وقام في نفسه معنى
ما يميزها عن غيرها من الملامات والصفات الأصلية . وأما الكلمات
المكتوبة فإنها لا تقتضي هذا العمل في الملاحظة فإنه متى عرف الطفل
التهجية وتركيب الحروف يمكنه أن يسمى عدداً لا نهاية له من الكائنات
الحية والجمادات التي ليس له بها أدنى معرفة وتوجد له بذلك ملكة غاشية متى
قويت وثبتت بالمادة أضلت معظم المقول البسيطة التي لا هم لها إلا التشور
لا يوجد الاستقصاء والتعمق في معرفة الأشياء إلا حيث يوجد
القياس والمضاهاة فإذا لم يتد الطفل التفكير فيما يرى وملاحظته يكون
قليل الاهتمام جداً بنظم ما يقرأه

آخر ما أذكره من مزايا الرسم أنه إعداد أولي كبير النفع في تعلم
الخط فإن أميل بتخطيط صور الأشياء التي يستلحها تخطيطاً حسناً أو رديئاً
يمرن أصابعه على الحركة ويكتسب نوعاً من الخفة والدقة لتكوين الخطوط
التي منها تتألف حروفنا الهجائية . ولكن الغرض إنما هو إعداد الذهن
للانتقال من الرسم الذي هو كتابة الصور إلى الخط الذي هو رسم المعاني
فلو أننا تيسر لنا أن نربط في حكم « أميل » التمثيل الخطي للأشياء المشهورة
بالعلامات السنوية التي تقوم مقامها نكون كأننا وضعنا على البحر الفاصل
بينها جسراً . على أنه لا شيء أبسر من تصغير الرسم في العمل فإن « أميل »
كلما رسم شجرة أو ثمرة أو حيواناً أقول له إنك قد رسمت حرفاً من

حيث لا تدري غير أنه توجد حروف أخرى أصعب من هذه رسماً وقراءة يكتبها المتعلمون فإذا هجت فيه بهذا القول داعية الشوق وحب الإعجاب هيلاً شديداً اكتب له الكلمة الموضوعه للشيء الذي رسمه وأعرضه على محاكاتها - أفل ذلك كاه وأنا أضحك

سواء عندي نجح في ذلك أم لم ينجح مادام يجتهد في كتابة تلك الكلمة ولا شك أنه يجتهد في ذلك إذا همل عليه بالحنق والمهارة ولا بد من إعادة الكتابة عدة مرات قبل أن يكتب شيئاً من ممارستها ولكن الأصل باق على كل حال . وبهذه الطريقة يعرف « اميل » من هذا الحين السبب في الكتابة وكيف أن الناس قد استبدلوا برسم الأشياء حروفاً اصطلاحية تدل على ما يدل عليه الرسم وبفضله تكون مساحتها أصغر ووقت وضعها أقصر . هاتان هما مزيتا الخط على الرسم فقط وهما اللتان أطيل له الشرح فيها لأنها أقرب إلى فهمه ، وأدنى من علمه

أن الطفل يجري في تعلمه تكوين الحروف عادة كما يجري الدولاب فما أحسنها طريقة للدخول في عالم المقول

نعم أنى عرفت بعضاً من المصورين كانوا لا يستصوبون مطلقاً ترك ملكة المحاكاة والتقليد مطلقاً بلا قيد في الطور الأول من الحياة ويرون أن الطفل إنما يرسم في الغالب بالهوى لا بمقتضى الفطرة كما يعتقد وهذا الإطلاق يفسد عليه عمل يده بما تعتمد من عدم النظام . وإذا صدقناهم يجب في تعليم الفنون الجميلة الولاية والتأديب . هذه مسألة يمكن اختلاف آراء الناس فيها كغيرها من المسائل ولكنها على كل حال ليست محل نظري فاني أراهن بالف بإزاء واحد . على أن « اميل » لن يدعي استحقاق جائزة رومة على

الرسم فأثي وجه لي في الحروف او الرجا في أن يصير بعد مصوّراً . ان
 جل ما ارغبه ان يكون رجلاً ولا شك في ان الشمور بما يوجد في الكون
 يعين على إتمام العقل والطبع . ومهما كانت رداءة رسومه فان اقل ما فيها
 انها تشهد له ببعض التفات توجّه الى ما يحيط به من الاشكال وهذا يكفي
 منه الآن . فاذا كان ممن لم ملاك حقيقيه في الفنون فلا بد ان تظهر هذه
 الملكة فيه يوماً ما . أليس من الشواهد التي تذكر في هذا المقام ذلك
 الراعي الصغير الذي كان تعلم الرسم بشبه أثناء وهي نماجه ولما تكمل فيه
 بعد بواسطة التعلم في المدرسة صار (الاستاذ رفايل)

اني ارى ايضاً ان تعليم الكتابة كان يجب ان يسبق القراءة او ان
 هذين التمرين يجب ان يتصل احدهما بالآخر . ان اندرويل ذلك الرجل
 المستير الفكر جداً الذي لا بد ان تكوني سميت شيئاً من سيرته في انكنا
 كان يبحث من سنين عديدة عن طريقة معقولة لتعليم القراءة والكتابة .
 ولما كان في الهند اتفق انه رأى يوماً من الايام أمام مدرسة في ضواحي
 مدراس ثلثة من احداث الهنود يرسمون بأصابعهم حروفاً على الرمل فوقف
 يلاحظهم ملاحظة المتأمل وبعد ان عرف طريقةهم ضرب بيده على جبهته
 قائلاً : قد وجدت مطلوبى . ليت شعري كيف كانت هذه الطريقة ؛ هي
 ولا شك طريقة بسيطة جداً ذلك ان أطفال الهنود لما كانوا اقرب منا
 الى الفطرة وكانوا لذلك اعمل بمقتضيات العقل كانوا يتدثون برسم الكلمة
 التي يرونها مكتوبة ثم يبحثون عن اسماء حروفها ويتهجون مقاطعها
 ثم ينتهون بقراءتها

أخص فائدة اراها في هذه الطريقة انها تشغل اليد والفكر فان الذي

يتعب الطفل ويستثمه عند ما يقف أمام كتاب إنما هو التفاته الذي يطلب منه بلا بصيرة فإن عمل الإنسان بنفسه وبحسه وتخمينه وسيره من المعلوم إلى المجهول طريقة فضلى في مخاللة الضمير وخذاعه

لست والحق أقول معجباً كثيراً بطرق التعليم المخترعة فإنها تفوق الحصر ومعظمها خيالية لا تنطبق على ما في العالم الخارجي مطلقاً . يحضرنى ان هولاندياً اعرفه خطر بفكره ان يجمع مجموعة من النعال وأراك تقولين ضاحكة : هذا خاطر غريب . نعم انه غريب ولكنه وقع فإن الانسان لا يكون هولاندياً بلا شيء وقد وجدت في خزائنه المقلدة بالزجاج كثيراً من الاموذجات المفيدة قفها من جميع الانواع ومن جميع البلدان والاعصر من البابوج ونعل المشخصين الى جرموق الصينيين ومن نعل متوحشي امريكا الشمالية الى بابوج كبراء الترك ففي هذه المجموعة من النموذجات المتعلقة بطبقات التاريخ المختلفة قد نسي صنّاع النعال شيئاً واحداً ألا وهو شكل قدم الانسان . اذا صح ما اقول فربما دعاني الى توجيه مثل هذا اللوم الى واضعي طرق التعليم . ذلك انهم يتفكرون كما ينبغي ومعهم ليس مجرداً من ملكة الاختراع ولكن ينقصهم شيء من التفصيل وهو في الحقيقة هين ألا وهو شكل عقل الانسان في اطوار حياته المختلفة

الطريقة الفذة التي اراها تلائم حالة التلميذ انما هي سلامة ذوق معلمه ولا اقصد بذلك انه لا موصل غيرها يمكننا ان نسترشد به في التربية بل انى اعتقد ان كثيراً من الطرق العلمية التي استعملتها الاجيال الفطرية ولا يزالون يستعملونها ربما استعملت استعمالاً مفسداً في تعليم الاطفال فلا شك انك سمعت الحديث عن آلة (الحاسب الصناعي) وانني لم اقف

تمام الوقوف على منزلة هذه الآلة التي دخلت في بعض المدارس لتسهيل
بعض عمليات الحساب على التلامذة بواسطة استعمال كرات من العاج
والكي على يقين من أننا أخذناها عن الصينيين وهي الحاسب الكروي
المسمى في ممسكة السجاء (سوان بان)

وعلى كل حال أعوذ بالله أن انتقد مثل هذا الأخذ بل أني أسف من
عده رجوعنا كثيراً إلى الطرق الصناعية والممارسات العملية للامم المتأخرة
لتسهيل الوصول إلى بعض العلوم الأولية على المبتدئين

هؤلاء الاقوام المتأخرون هم اطفال التاريخ . قد عرفت الآن بعض
القوانين التي جرى عليها في جميع جهات الارض تكون اللغات والكتابة
والمنون والميكانيك والصناعة والتأليف كيف عند حد معرفة مناشئ العلوم
فقط بل ان البحث في العلامات التي تظهر فيها المعاني في أثناء الاذوار
لاولى للحضارة قد أدى بنا إلى معرفة استعداد العقل البشري وطرق
الكتاب في الوصول إلى العلوم فإما ان يكون خطأ خطأ فاحشاً وما ان يكون
هذا الترتيب الطبيعي في التقدم هو الذي ينبغي اتباعه في تربية الاحداث
ان طرق التعليم عند الامم التي وقفت فيها حركة الترقى والتقدم عبارة
عن شؤون دثة وحالة وجود ومعرفة مستمرة فلا ينبغي أن تكون لا وسيلة
وقنية لاطفال فانه وان كان في الاصل جاهلاً مثل هؤلاء الامم لكنه يمتاز
كل يوم عن الوحشي والبربري بملكة التحويل التي كأنها مرسومة في
عضائه فهو يبرج بسرعة على معارج حلت بين الاجيال القديمة وبينها
عقبات كؤود فلا يقف في عروجه هذا الا عند حد الذي تضعه له
استمداده وهناك الشخصية ونوع القوم الذين يعيشون بينهم وتأثير

الزمن فيه . ان نسبة طرق التعليم الى التربية كنسبة الاوضاع والقوانين الى المجتمع فهي لا تلائم إلا حاجة وقتية من حاجات العقل فيجب اعتبارها جميعها وقتية فيكون من الحق حصر عقل التلميذ في بعض الاشكال التعاممية كما كان من الجور في القرن السادس رغبة ابقاء الامم على نظام القرون الوسطى وعقائدها

أنا أمير الجزيرة

« رآء الأمير عبدالرحمن خان »

كنا نتوقع من شعراء العربية المجيدين في مصر والشام المباراة في رآء فقيد الاسلام واعظم امرائه الذين عززه الله بهم في هذا الزمان الذي خربت فيه الممالك الاسلامية بأيدي امرائها فاذا هم لا يزالون مشغولين بمدح من لا خير فيهم عملاً بقاعدة « احسن الشعر اكذبه » التي هدمها الامام عبد القاهر الجرجاني (راجع المنارج ٣١ م ٣) فاحتجنا الى الاقتباس من شعراء بلاد الاعاجم فقد قرأنا في جريدة (أمير الاخبار) الهندية قصيدة لصديقنا العالم الاديب الشيخ احمد جيتيكر برثي بها الأمير عبد الرحمن ضياء الملة والدين رحمه الله تعالى فنشرناها تنويهاً بذلك الفضل العظيم وتنبهاً لفضلاء الادباء الى قضاء هذا الحق لمستحقه . وهي يبرق شملة نهي^(١) يشمل الجلالا

(١) لعل (شملة) التي اضاف اليها البرق موضع او جهة من جهات افغانستان